الفصل الحادي عشر

أحمد الصاوي

لعل رواية أحمد الصاوي: «إصابة ملاعب»، هي الأكثر أهمية في تاريخ الأدب المصري، من حيث العلاقة مع كرة القدم. الرياضة الشعبية واسعة الانتشار هي العمود الفقري في البناء الروائي، عبر الاندماج مع المعطيات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية والنفسية والأمنية، وثيقة الصلة بعالم الكرة.

من خلال مجموعة مصادفات معقدة قوامها الإسراف في الخيال، بقدر ما أنها ممكنة واردة، يصطدم الحلم المصري بوصول منتخب كرة القدم إلى نهائيات كأس العالم، مع حتمية أن يخوض لقاءين فاصلين حاسمين مع الفريق الإسرائيلي. تنتهي أحداث الرواية قبل ساعتين من الموعد المحدد لبداية المباراة الأولى في ستاد القاهرة، وتبقى أسئلة كثيرة بلا إجابات واضحة محدودة: هل يُقام اللقاء المرتقب الذي يحظى باهتمام عالمي واسع؟، وكيف يسير؟، وما النتيجة؟، وماذا عن العمل الإرهابي الخطير الذي تنبئ المؤشرات جميعًا على الإعداد له بمعرفة الجماعات الدينية المتطرفة؟!.

تقدم الرواية شخصيات شتى، متكاملة متجانسة، من اللاعبين والمدربين والإداريين والإعلاميين والمشجعين والسياسيين ورجال الأمن والإرهابيين، يدورون جميعًا في فلك الساحرة المستديرة، التي تمثل مفردة بالغة الأهمية في نسيج الحياة اليومية المصرية، وفي بلدان العالم كله، شرقه وغربه.

كرة القدم، في جوهرها، تكثيف دال للحياة الإنسانية في مناحيها المختلفة، والصراع

المثير الساخن الذي تشهده ملاعبها ومدرجاتها بمثابة الترجمة الأمينة الدقيقة لما يدور خارج الملاعب والمدرجات من معارك طاحنة معقدة، تخضع للقانون الأساس الذي تعبر عنه الرواية في صفحاتها الأولى: «كل الهزائم كوارث.. حتى ولو في مستطيل أخضر».

❐❐❐

المشجع «المحترف» حمامة، نموذج متكامل الأبعاد للموقع الذي تحتله كرة القدم في ظل المتغيرات الجذرية العاصفة التي تشهدها مصر، سياسيًّا واقتصاديًّا واجتماعيًّا وثقافيًّا. الكرة في حياته، وحيوات الملايين ممن يماثلونه، هي المعنى الوحيد في ظل هيمنة الخواء والإحباط: «كان حمامة أحد هؤلاء التائهين. عاشق كرة القدم التقليدي الذي وجد منذ زمن طويل في الكرة ضالته. هي التي تضبط مزاجه، يُفرغ من متابعتها بشعف انفعالاته. يفرح حتى الثمالة حين ينتصر فريقه وكأنه سيناله نصيب من مكافآت اللاعبين. ويختفي عن الأنظار عند الهزيمة كأنه «عامل عملة».

يهرب من معايرة مشجعي الفرق المنافسة، وينبري دفاعًا عن اللاعبين، يتلمس لهم الأعذار، ويضع التبرير فوق التبرير كأنه هو الذي تلقى الهزيمة، أو كان أداؤه سيئًا في الملعب، أو كان هو نفسه حارس المرمى الذي اهتزت شباك مرماه بأهداف الهزيمة».

اندماج كامل في عالم كرة القدم، لأنه لا يملك بديلاً ينشغل به ويضفي المعنى. عبر مئة عام تقريبًا، منذ بداية انتشار اللعبة في مصر، تتسع الحياة لمشجعي الكرة متفاوتي الحماس والإخلاص والوعي والتعصب في تشجيعهم للأندية المحلية التي ينتمون إليها، لكن الكرة في العقود الأخيرة لا تنجو من طوفان التحولات التي تصيب المجتمع على الأصعدة كافة. من علامات التدهور والانهيار، التي لا يمكن إنكارها أو إهمالها، ذلك الوجود السلبي الثقيل للمؤثرات السياسية والاقتصادية في ساحة الكرة: «دخل البيزنس وقواعد السوق عالم الكرة فأفسدها، حولها إلى سلعة كأي سلعة، وصار بعض التشجيع مهنة، ثم دخلت السياسة فكادت تئد كل شيء، حولت الملاعب لمقابر جماعية وساحات مذابح، قتلت الروح الرياضية كما قتلت كل روح جميلة في المجتمع، وأغرقت المدرجات بتناحر على الهوية والحزب والدين».

تتحول كرة القدم من رياضة ترفيهية محببة، حافلة بالإثارة ومتعة التنافس الشريف

المغلف بالمودة والتسامح، ويتوزع عشاقها بين الأجيال والطبقات والثقافات المتعارضة، إلى سلعة تخضع لقانون العرض والطلب من ناحية، ويهدف قطاع من المهتمين بها إلى تحقيق مصالح وأهداف غير مشروعة من ناحية أخرى. مثلما يوجد محترفون في اللعب والإدارة والتسويق والتحليل الإعلامي، يظهر محترفو التشجيع الذين يمتهنون عملاً مجزيًا بقدر ما أنه مدمر لكل ما هو بسيط جميل بريء. في مناخ كهذا، وفي ظل الفوضى السياسية العارمة وما يترتب عليها من تداعيات كارثية، يسقط فيها القتلى من المشجعين، ما يفضي إلى صدور قرارات أمنية تحرم الجماهير حقها المشروع في الذهاب إلى الملاعب ومتابعة المباريات، تولد ظاهرة جديدة تنتشر وتتوغل، وتتوافق مع العولمة وتجلياتها الوافدة: «تحول كل عشاق الكرة إلى تشجيع الفرق الأوروبية بذات الحماسة والانتماء لفرقهم المحلية، منهم من هرب إلى القنوات الرياضية لمتابعة المباريات الأوروبية استمتاعًا بمستوى مختلف في اللعب، ومنهم من هرب من طغيان السياسة والسباب والتخوين والتكفير، ليس على المدرجات وحدها، وإنما على المجتمع كله».

لم يعد الانتماء مقتصرًا على الأندية المصرية الأكثر شهرة وجماهيرية: الأهلي والزمالك والإسماعيلي، فالولاء الجديد يتوزع بين ريال مدريد وبرشلونة في أسبانيا، ومانشستر يونايتد وتشيلسي في إنجلترا، وميلان وبايرن ميونيخ في إيطاليا وألمانيا، وغير ذلك من الأندية الأوروبية ذائعة الصيت.

مع احتراف بعض اللاعبين المصريين الموهوبين في الأندية العالمية، يتجاوز الأمر تشجيع أندية بعينها، مصرية كانت أم أوروبية، إلى اللاعب الفرد بتحولاته وانتقالاته. النجاح الذي يحققه يرتفع به إلى مقام القدوة والبطل والمثل الأعلى، وبخاصة أن الواقع المعيش بلا نماذج بطولية مثالية تستحق أن تُحتذى. يمكن القول إن حمامة «نصراوي»، نسبة إلى اللاعب المصري ناصر، النجم المتألق في سماء الكرة العالمية: «يشجع أي فريق يلتحق بصفوفه النجم المصري».

إنه الجوع إلى البطولة والأبطال!.

❐❐❐

الروائي ذو ثقافة كروية رفيعة المستوى، ودرايته واسعة عميقة بأحوال الكرة المصرية والعالمية، وفلسفة وخطط اللعب، والمصطلحات الفنية المتداولة. يوظف ثقافته ودرايته لتقديم بناء متقن سلس متماسك، يخلو من الترهل والثرثرة واستعراض المعلومات عشوائيًّا لملء الفراغ أو صناعة التشويق الأجوف.

قد ينشغل بعض قراء الرواية بالبحث عن الجذور الواقعية لشخصيات تقدمها الرواية، مثل المدرب حندوسة واللاعب المحترف ناصر وقائد المنتخب رياض ورئيس الاتحاد المصري لكرة القدم، لكن انشغالهم هذا لن يجدي شيئًا في التواصل مع الرواية وعالمها الثري، ذلك أن الأهمية الحقيقية لا تقترن بإشباع الفضول، بل إنها تكمن في الرؤى المتنوعة المتكاملة التي تتشكل من خلال الشخصيات.

حندوسة، لاعبًا ومدربًا، صاحب إنجازات مهمة في سجل كرة القدم المصرية، والملمحان الأهم في شخصيته متداخلان متكاملان: أولهما المقارنة الدائمة التي تسكنه وتسيطر عليه مع المدرب الراحل محمود الجوهري، وثانيهما التوجه الفكري الذي يختلط فيه المبدأ بالحس النفعي إلى اعتناق الأفكار الدينية المحافظة الأقرب إلى التشدد والتعصب.

يعرف عشاق كرة القدم أن محمود الجوهري هو صانع الفرحة الكروية الكبرى بالوصول إلى نهائيات كأس العالم سنة 1990، وإليه أيضًا يعود الفضل في تحول مسيرة الكرة المصرية بعيدًا عن الأطر التقليدية الموروثة: «كان الجوهري رجل بناء في صناعة كرة القدم، ويعتقد حندوسة أنه امتداد له ولمدرسته في إدارة الفريق لكن بأسوب مغاير داخل الملعب، ومباراة واحدة تفصله عن حلم المونديال، ليحقق كل الإنجازات التي حققها الجوهري لاعبًا ومدربًا، لعل الناس تتذكره بالرحمة كما تتذكر الجوهري الذي طالما اختلفت معه، لكنها لم تنس أبدًا ريادته كمجدد كروي كبير».

يعد محمود الجوهري أحد أبرز الرموز في تاريخ كرة القدم المصرية، وصاحب البصمة التي لا يمكن أن تُنسى، أو يتراجع تأثيرها. كان يقود المنتخب ويرحل عن إدارته بإرادة الجماهير، الكتلة الصاخبة التي ينقلب حبها المتطرف عند الفوز إلى سخط لا يقل تطرفًا عند الهزيمة. لاشك أن حندوسة يتمثله دائمًا ويحتذي به، وفي صراعه مع اللاعب الأشهر ناصر يبدو امتدادًا

لسلوك سلفه الذي لم يكن يقبل شريكًا في الصدارة والقيادة المنفردة: «ومثلما كان للجوهري صدامات شهيرة مع لاعبين كبار، وقف فيها الرأي العام في صفه كمدرب احترامًا للقائد، فمن حقه أن يسانده الرأي العام، وأن يكون معه وليس مع ناصر».

على صعيد القيم والأفكار، يمكن القول إن حندوسة محافظ مسرف في الحفاظ على تقاليد وأعراف التدين الشكلي إلى درجة لا تبتعد به كثيرًا عن الوقوف على حافة التطرف والتعصب، مثله في ذلك مثل الغالبية العظمى من المصريين المعاصرين. «منتخب الساجدين» هو الاسم الشائع الأكثر انتشارًا للفريق المصري، ويلزم حندوسة لاعبيه بالصوم في المباريات التي تُقام في نهارات شهر رمضان، ويطالبهم بالإعلان عن تدينهم والسجود شكرًا لله عقب كل هدف يسجلونه في شباك المنافسين. اعتراض ناصر على منظومة أفكار المدرب تقود إلى الصدام بينهما، فاللاعب المحترف في أوروبا يحتك بالتنوع الديني والعرقي واللغوي، ويتجلى ذلك بوضوح في القضايا التي يطرحها بصراحة موجعة في بعض تصريحاته الإعلامية:

«- لماذا يندر اللاعبون المسيحيون في كرة القدم المصرية؟ وفي الفريق الوطني تحديدًا؟

هل في المسألة أي بعد طائفي؟

هل المسيحيون المصريون لا يلعبون كرة القدم؟

هل الملاعب المصرية التي ترحب بالمدربين المسيحيين الأجانب واللاعبين المسيحيين الأجانب تضيق بالمسيحيين المصريين؟.

كل هذه الأسئلة المشروعة متداولة دون إعلان داخل عالم كرة القدم المصرية، طرحها ناصر ولم يجد لها إجابة، وأدت هذه الأسئلة إلى إحراج الكابتن حندوسة أكثر، خاصة مع الربط بين عدم وجود أي لاعب مسيحي في الفريق، وإصرار المدرب على إظهار الفريق الوطني في صورة «منتخب الساجدين»، قولاً وفعلاً، وإعلانه أن التدين معيار حاكم في اختياراته للاعبين، وهو معيار مقدم على الكفاءة».

القضية شائكة معقدة، ولا تنفصل عن الطبيعة الجديدة للمجتمع المصري. في مراحل سابقة من تاريخ الكرة المصرية، لم تكن مثل هذه التساؤلات مطروحة، فلا أحد يفكر في

الهويـة الدينية للاعبي الكرة وغيرهـم من الفئات، والبطولة الوحيـدة للانتماء المصري، لكن التحولات السـلبية منذ منتصف السـبعينيات من القرن العشريـن تنعكس بالضرورة على كرة القدم. يندفع الجميع إلى الإعلاء من شـأن التدين الشـكلي، ولا يتورعون في الوقت نفسـه عن اسـتثمار الدين سـلاحًا مؤثرًا لتحقيق المصالح الشـخصية. لا يجد حندوسـة حرجًـا في اعتبار التدين معيارًا للاختيار قبـل النظر إلى كفاءة ومهارة اللاعب، واللافت أن الازدواجية تتسرب إلى عالم الكرة، حيث الاسـتعانة بالمدربين واللاعبين المسيحيين من خارج مصر، والنفور من المصريين المسيحيين أبناء الوطن!.

□□□

كما هو الحال في الحياة الإنسـانية، لا ثابت أو راسـخ في عالم كـرة القدم. تغيير المواقف والتحول العاطفي السريع من سـنن وقواعد الكرة، وذاكرة المشـجعين ضعيفة هشة لا تعرف الاسـتقرار، وتنكر الإنجازات السابقة عند الإخفاق في محطة تالية: «كم هتفت للاعبين كبار ورفعتهم على الأعناق، ثم طالبتهم بالاعتزال بذات الحماس».

لا تملـك كـرة القدم تـرف الانفصال عـن قوانين الوجـود الإنسـاني، وكل تغيير في الأجواء السياسـية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، يـترك أثره بالضرورة على اللعبة الشـعبية. من ذلك ما نجده في شـيوع ظاهرة الخبراء المحللين الذين يدربون فرقًا صغيرة ويحققون معها فشـلاً ذريعًا، لكنهم يتحولون في البرامج الرياضية الفضائية إلى جهابذة عباقرة، يملكـون الوعي الخارق والقول الفصل واليقين المطلق الذي لا يطوله الشـك. لا يختلف سلوكهم عن الشائع السائد في المجالات الأخرى جميعًا، فهو سمة راسخة لا تنجو منها سـاحة واحدة: «المزايدات أفسدت كل شيء في مصر، الكرة والاقتصاد والسياسة والعلاقات الدولية».

لا تملـك الكـرة أن تنجـو من القواعـد التي تحكم عمـوم المجتمع المـصري، وهي تخضع لسـلطات الأجهزة الموصوفة بالسـيادية، تلك التي تتحكم في الإيقاع وآليـة الحركة. ليس مثل مصطلح «الأجهزة السـيادية» في التعبير عن التداخـل والاضطراب الذي يغرز أنيابه في وجوه الواقع كافة: «فلا يوجد من مواطني دولة الكرة في مصر من يدعي قدرته على تحدي القرارات

السيادية، التي طالما أنقذت فرقا من الهبوط، ومنحت فرقًا انتصارات، وتدخلت لصالح لاعبين ومسؤولين وحكام وجماهير بعينها أيضًا».

لا ثوابت تدوم في الحياة وكرة القدم على حد سواء، وحتمية الخضوع للتحولات الصارخة بمثابة القانون الذي يفضي إلى تغيير كل قواعد السياسة والكرة. الصراع العربي الإسرائيلي لا تنهيه معاهدة سلام رسمية، والممارسات الصهيونية العنصرية التي تتجسد من خلال إرهاب الدولة اليهودية، تصنع من الحواجز والسدود النفسية مالا يمكن عبوره على الصعيد الشعبي، لكن سلطة الاتحاد الدولي لكرة القدم هي الأقوى والأعظم إلزامًا عند المقارنة بالقرارات التي تصدر عن المنظمات الدولية الهشة. من هنا تتحول المواجهة الفاصلة بين مصر و إسرائيل، للحصول على بطاقة المشاركة في نهائيات كأس العالم إلى حقيقة لا تملص منها، وتمثل المعالجة المحورية في رواية أحمد الصاوي.

❐❐❐

هل كان اللقاءان الفاصلان بين مصر و إسرائيل قرارًا عمديًّا مرتبًا له، أم أنها المصادفة الكارثية التي تتم بشكل عفوي؟!. لأن فكرة المؤامرة تهيمن على العقلية المصرية، يأبى القطاع العريض من جمهور الكرة إلا أن يتشبث بوجود مؤامرة محكمة متقنة متعددة الأطراف، ومما يدعم ذلك النمط من التفكير شيوع الفساد والرشوة في عالم الكرة.

يتحدث متبنو نظرية المؤامرة عن ضغوط أمريكية على اليونان ليخسر فريقها الكروي أمام إسرائيل بنتيجة ثقيلة، و يشير الخبراء الاستراتيجيون إلى الأزمة الاقتصادية اليونانية كأداة ضغط، حيث التلويح بقطع المعونات حال عدم الاستجابة: «ولم يحدد الخبراء الاستراتيجيون هل قامت أجهزة المخابرات تلك بممارسة الضغوط نفسها لإخراج مباراة الدنمارك والسويد بالشكل الذي يساعد إسرائيل أيضًا على الصعود أم أن الفريقين تطوعا من تلقاء نفسيهما؟!».

الإعلاء من شأن نظرية المؤامرة يمنح شعورًا زائفًا بالرضا وتوهم القوة التي لا وجود لها عمليًّا، فهل تتآمر أجهزة المخابرات العاتية إلا لمواجهة قوة ذات شأن؟!. لا أحد يتوقف عند مسئولية المنتخب المصري وتعرضه للهزيمة في مباريات سابقة، وهو ما يفضي إلى اللقاء العصيب مع إسرائيل، واللافت للنظر هو الجهل الكامل للمدرب حندوسة بالفريق الإسرائيلي،

الذي يتحتم عليه أن يلاقيه و ينتصر عليه ليصل إلى النهائيات، فهو يوقن أن مشاهدة مباريات إسرائيل بمثابة التطبيع المرذول الذي لا يليق: «لذلك هو فريق مجهول تمامًا لا يعرف شيئًا عن طريقة لعبه، ولا مفاتيحه التكتيكية، ولا أبرز لاعبيه».

كيف يكون الجهل بالعدو في السياسة، والمنافس في اللعب، سلاحًا يُعتز به؟!. وحده قائد المنتخب المصري، رياض، من يطرح فكرة صحيحة عقلانية لا يلتفت إليها أحد، في السياسة والكرة:

«- لماذا لا نلعب مع إسرائيل؟.

يسأل رياض وبعد ان يجيبه أحد اللاعبين بوصف إسرائيل بالعدو رغم السلام البارد، بسبب عدم تحقيق هذا السلام الهدف منه بإنهاء الاحتلال ووقف الاعتداءات الإسرائيلية المتكررة في المنطقة، يرد رياض متسائلًا:

- هل الوطنية أن نواجه العدو أم نهرب من مواجهته؟».

من ناحية أخرى، وامتدادًا للمنهج نفسه، يتعامل الإعلام الرياض المصري مع كرة القدم كأنها ساحة حرب دامية، وتظهر المفردات العنترية في المباريات التي تجمع الفريق المصري مع منتخبات الدول العربية «الشقيقة»، فكيف يكون الأمر واللقاء المرتقب مع عدو صريح مثل إسرائيل؟!. يفكر رئيس الاتحاد المصري لكرة القدم في السيناريو المتوقع لخطاب الإعلام: «هل سيصف حائط صد إسرائيل بأنه «خط بارليف» وهجوم مصر بأنه «عبور» نحو مرمى الخصم، وهدف إسرائيل بأنه «نكسة» وهدف مصر بأنه «إزالة آثار العدوان؟.. و إذا وصف المصريين بأنهم الفراعنة، أو أحفادهم، بماذا سيصف الإسرائيليين؟».

المحترف المصري العالمي ناصر، ذو الثقافة المختلفة بفعل إقامته في أوروبا واحتكاكه بقيمها، يبدو للوهلة الأولى مرشحًا لاتخاذ موقف معتدل تجاه المباراة التي تكتسب أبعادًا تتجاوز الكرة إلى آفاق سياسية وتاريخية، لكن تراثه العائلي الموجع يحول دون قدرته على اللعب، و يصل به الأمر إلى حد الاعتزال حتى يتجنب المشاركة، مضحيًا بالحاضر الناجح والمستقبل المشرق الذي ينتظره في ساحة الكرة العالمية. الأب شهيد من ضحايا الإرهاب

الإسرائيلي، والأم زينب ضحية أخرى، ليس لأنها تفقد زوجها فحسب، بل أيضًا لأنها تعاني في طفولتها محنة التهجير بعد هزيمة يونيه 1967: «كانت طفلة صغيرة حين وجدت نفسها على سطح سيارة نصف نقل، تغادر بها الإسماعيلية على عجل، حتى دون أن تمنحها فرصة لالتقاط عرائسها وألعابها، من أسفل أنقاض منزل هدمته الحرب».

تتحول مباراة الكرة المرتقبة مع إسرائيل إلى أداة للكشف عن خبايا وتفاعلات المجتمع المصري، والإرهابي سعيد الصوارمي بدوره يسعى إلى استثمار اللقاء لتحقيق انتصار مزدوج ضد النظام و إسرائيل، و يقول لأنصاره ومريديه: «العدو سيأتي وسيوفر على المجاهدين عناء السفر إليه».

في لقاء ناصر مع اللاعب الإسرائيل موردخاي، ذي الأم المصرية التي تحتفظ بالكثير من الذكريات الجميلة عن طفولتها في حارة اليهود، لا يصل الحوار بينهما إلى ما يوحي بأمل التوافق والتسامح والنسيان، ذلك أن التاريخ القريب حافل بالمرارات، والحاضر قوامه سيادة وهيمنة التطرف والتعصب، ووفق تعبير ناصر: «لا فارق بين من يريد الدولة الدينية اليهودية، ومن يريد الدولة الدينية الإسلامية، كلاهما فيها نفي و إقصاء للآخر، ولا فارق بين حكومات تعيش على الحرب، وتنظيمات تنمو بالحرب، وأنظمة تشرعن وجودها بخطر الحرب».

لا توجد مشكلة مع اليهود كأفراد، لكن التعايش مع الدولة الصهيونية ليس واردًا، أما عن المباراة التي يقترب موعد إقامتها فلا يمكن التنبؤ بما قد يترتب عليها من نتائج وآثار، بل إن فكرة أن تلعب محاطة بالشكوك.

النهاية مفتوحة تطرح الأسئلة ولا تقدم الإجابات، وصافرة نهاية الرواية تتويج لمباراة لا شأن لها بكرة القدم؛ مباراة الواقع المعقد الملتبس المضطرب الذي يستعصي على الفهم، ولا يتيح فرصة التوقع والتنبؤ بما سوف يكون.

❐❐❐